الدين والأخلاق

بين الجديد والقديم

لأحد أساطين الأدب الحديث

— ٦ —

لايدهش أحد إذا عدونا مايسمى نزعة التجديد نزعة رجعية فى أولها، فقد أوضحت أنها فى مبادئها كانت رجوعاً إلى مبادىء الشعر العربى القديم من قلة تكلف الصناعة، ومن نظم الشعر بالعاطفة أو ذكري العاطفة بدل نظمه تعمداً بالصنعة، ومن البحث فى خواطر النفس وشجونها وأشجانها والتعبير عنها بدل تنميق المعانى المتفق عليها. فلا شك أن شعر الجاهليين وشعر شعراء صدر الاسلام كان أكثر نصيباً من هذه المبادىء من شعر الدولة العباسية، وإن كان لشعر الدولة العباسية روعة وفيه قوة، ولكن أروعه وأقواه ما تارب طريقة الأقدمين وكان أقل تعملا فى الصنعة، أو ما كانت صنعته أشبه بالطبيعة.

ولا يدهش أحد إذا وجدنا أن هذه المبادىء يتفق فيها الشعر العربى القديم والشعر الأوربى الصحيح السليم، وأن الصناعات الغريبة فى الشعر الأوربى ما ظهرت إلا فى عصرنا هذا؛ ولكن كثيراً من أدبائنا الذين لايعرفون اللغات يحكمون على الشعر الأوربى بشعر شعراء الرمزية أو شعراء الوحى الباطنى وأمثالهم، وهى طوائف حديثة فى أوروبا كما هي حديثة فى مصر، ويفر أدباؤنا ما يقع فيه بعض المطلعين على الأدب الأوربى من النقل الحرفى لأساليب الكلام والمصطلحات، ولكل لغة خصائص فى المصطلحات وأساليب الكلام إذا نقلت نقلا حرفياً إلى لغة أخرى عدت معانى سخيفة. ومن هنا نشأت فكرة من يقول ان معانى وأخيلة الأدب الأوروبي لا تتفق والذوق العربى.

ولكن مما لاشك فيه أنه بالرغم من اختلاف خصائص العربية والافرنجية، فان الشعر الأوربى قبل أطواره الحديثة كان فى مبادئه الأساسية قريباً من الشعر العربى القديم قبل غلبة الصناعة عليه غلبة قضت على تلك المبادىء

ولا يدهش أحد إذا قلت إن كل نهضة تجديد دخلت الأدب والشعر العربى حديثاً كانت نزعة رجعية؛ فنهضة البارودى وشوقى وحافظ وحفنى ناصف ومطران (فى شعره الحديث) كانت أيضاً نهضة رجعية بدأها الساعاتى وقواها البارودى ومن أتى بعده؛ وهى كانت نهضة رجعية لأنهم رجعوا بالشعر عن طريقة البهاء زهير وابن الفارض والبستى وابن نباتة المصرى وابن النحاس وخليل الصفدى: طريقة الجناس الغالب والنكات، إلى طريقة الصنعة العالية القوية صنعة مسلم بن الوليد وأبى تمام وأضرابهما. وترى هذه الرجعية ظاهرة فى شعر شوقى أعظم ظهور، فقد بدأ بمدح البهاء زهير فى مقدمة الطبعة الأولى القديمة من الشوقيات وأسرف فى مدحه. وترى شعر شوقى في صباه مما أثبته فى الطبعة القديمة بعضه أشبه بشعر المتأخرين، وأظن أنه حذفه ولم يثبته فى الطبعة الحديثة؛ ثم صار شعره يقترب من نسق فطاحل الدولة العباسية أمثال مسلم وأبى تمام والبحترى.

وكان منتهى أرب الشاعر قبل نهضة البارودى وشوقى وحافظ أن يكثر من الجناس وأنواع البديع حتى ليقال إن أحدهم أفنى عمره فى صنع قصيدة بديعية كبيرة شحنها بما يقرأ طرداً وعكساً، وما يقرأ من أسفل ومن أعلى، وبالجناس وأنواعه، وأشباهه من المحسنات، فاحتال عليه أصدقاؤه وسرقوها منه فأتت كداً وراح ضحية الطرد والعكس وصريع الجناس. وكان الأدباء إذا أرادوا إن يستجيدوا بيتاً أنشدوا بيت ابن نباتة المصرى، ولا أذكر كلماته بالضبط، ولكنه يمدح سلطان مدينة حماه فى الشام فيقول: إن (حماه) (المدينة) علمتهم نعمى الممدوح حتى غدا كل منهم يحب (حماته) (أى أم زوجه). هذه هى (مفارقات) النكات العامية المصرية التى كانت تطرب الأدباء. أو قول البهاء زهير لمشوقته إنه دعاها (ست) أى سيدة، لأنها ملكت جهاته (الست)

فرجوع البارودى وشوقي وحافظ إلى عصر أقدم من هذا العصر لابد أن يسمى رجعية، وليست كل رجعية ذميمة.

والنزعة الحديثة إلى التجديد هى فى الحقيقة تكملة النزعة الرجعية التى نشطها البارودى، فكانت نزعة التجديد نزعة تفضيل (مبادىء) الشعر العربى الأقدم من العباسى ومن العباسى ما يقارب ذلك الشعر. وقد شرحنا تلك المبادىء. والذى غطى على

هذه الحقيقة أثر الأدب الأوربي ، وفتحه أبواباً جديدة من أبواب القول، وشده أزر الخيال والفكر . وعلى الحقيقة أكثر من كل ذلك تشعب نزعة التجديد إلى فروع جديدة بعيدة كالرمزية وغيرها .

ولكنا إذا نظرنا إلى هذه الفروع وجدنا أن كلا منها مغالاة في مبدأ من تلك المبادىء كما فصلنا في المقال السابق ؛ فالذين يريدون تقليب الوعي الباطن مثلا إنما تفرعوا من مبدأ جعل الشعر بحثاً في صفات النفس وخواطرها وشجونها وأشجانها بدل ترديد معانٍ متفق ومصطلح عليها . ولا شك أن شعراء الجاهلية وصدر الاسلام كانوا ينظمون بالعاطفة أكثر من شعراء الدولة العباسية . ومعنى النظم بالعاطفة البحث في شجون النفس وأشجانها ، فهذه الطائفة في نشأتها كانت رجوعا إلى طريقة الشعر القديم ، وإن كانت قد غالت محاكاة للنزعات الحديثة في الأدب الأوروبي العصري . وبهذه الطريقة نستطيع أن نرد كل طائفة من طوائف وفروع نزعة التجديد إلى أصلين : أصل في الأدب العربي القديم غالت فيه ، وأصل من محاكاة النزعات الحديثة في الأدب الأوربي العصري . فاذا تتبع الأستاذ النمراوي الأسباب والعوامل التي أثرت في الأدب العربي الحديث وجد أنه لم تكن هناك مؤامرة على الدين والفضيلة نشأت عنها النزعة إلى التجديد ؛ فان تتبع الحوادث يُظهِرُ كيف أن بعض أدباء المذهب القديم يقلبون (النتيجة) المارضة الثانوية المحدودة وهي الشذوذ والشطط فيجعلونها (سبب) نهضة التجديد كلها ؛ وقد أوضحنا أن الشذوذ والشطط موجودان في كل عصر ومذهب وذكرنا شواهد وأمثلة.

وإذا نظرنا في تاريخ النزعات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والأدبية وجدنا أنها كانت مصحوبة كلها أو أكثرها بشيء من الشطط؛ وهذا الشطط إما أن يكون متعمداً لمحاربة الجمود أو الوقوف، أو غير متعمد، بل تندفع اليه بعض النفوس قهراً. وقد لا يعرف الشطط ولا يميز من غير الشطط إلا بعد عصور طويلة تمحص فيها الأمور. ولو أن كل نزعة من النزعات البشرية رفضت كلها بسبب ما يصحبها من الشطط ما تغيرت الانسانية . ومن الحقائق الثابتة أن بعض الخاصة كانوا في كل نزعة تجديد يخلطون بين مبادىء النزعة ومظاهرها ؛ وبين ما يصحبها من الشطط، حتى كانوا يحسبون أن الجنس البشري مقضى عليه بسبب تلك النزعة . فالنزعة إلى الديمقراطية في أوربا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر كانت مصحوبة بشطط . وحسب بعض الخاصة أنه سيقضى على الانسانية، وأن القيود والشرائع الاجتماعية مقضى عليها بالاضمحلال، فرفضوا النزعة بأجمعها بدل رفض الشطط وحده . وهذا هو ما حدث في نزعة الاصلاح الديني في أوربا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، أو ما حدث في النزعة إلى تحرير الرقيق في أمريكا . ولعل الشطط الذي كان في رفض النزعة كلها كان يغفر الشطط الذي يصحبها ويهون أمره في نفوس أنصارها ويساعد على نجاحها .

ومما يشاهد أيضاً في حياة الأمم أن الفساد الكثير المألوف قد لا يثير من التسخط قدر ما يثيره الفساد القليل غير المألوف ، وإن كان الأول أوخم عاقبة وأكثر ضرراً. والنوع الأول من الفساد هو كما في الأدب العربي من مجون وإباحية صقلهما الدهر واعتادها القراء حتى صارا لا يثيران تسخطاً بل يُنظَرُ اليهما كما يَنظُرُ الأب إلى ابنه الكثير الدعابة واللعب فيلومه ولكنه يحن اليه ويعطف عليه وتزيده دعابته ولعبه حبا له .

ومن المشاهد أيضاً أن الأديب أو المفكر قد يدافع عن مذهب وهو يعمل على هدمه من غير عمد ، أو يعمل على الأقل لاذاعة نقيضه بمؤلفاته وهو في بعضها يعمل لنقيض هذا النقيض . فشوقي الذي أطرى البهاء زهير في مقدمة الطبعة القديمة من الشوقيات ، هو شوقي الذي عمل بشعره المتين الأخير للقضاء على طريقة البهاء زهير وأضرابه . والرافعي الذي يروج أشد مذاهب الأدب الأوربي الحديث تطرفا وهو مبدأ الرمزية من غير قصد بتأليف (حديث القمر) ، هو الرافعي الذي ينتقد الأدب الأوربي أشد انتقاد في مقالاته . وكم من أديب قريب العهد بالأدب لولا بعض كتب الرافعي ما احتذى هذا المذهب فيما كتب .

فالعقل أو الوعي الباطن قد يُسَوِّهُ على العقل الظاهر الناقد. أليس في بعض شعر الصوفيين من شعراء اللغة العربية شهوة مكتومة يبوح بها العقل الباطن بالرغم من صرف العقل الظاهر معناها إلى الذات الالهية ؟ وهذا مع أن أوصاف المحبوب لا تشير إلا إلى إنسان جميل وإن القول شهوة محض .

ولعل الأستاذ قد قرأ وصف النابغة الذبياني للمتجردة زوجة

النعمان واطلع على مافيها من وصف عورة المرأة وما هو أشد من أشد من وصف عورتها فى قوله (وإذا ... وإذا) . نعم إن النابغة شاعر جاهلى ، ولكن استشهاد الأفاضل الأجلاء من شيوخ الأدب والعلم بهذا الوصف ونشره فى الكتب التى يعدونها للقراء ومنهم الفتيان والفتيات ، يدل على أن العقل الناقد فيهم قد نامت عن أن هذا الوصف يخالف العرف والتقاليد والآداب الاسلامية

وهؤلاء الأفاضل هم الذين يسخطون على وصف النوائى فى لباس البحر وصفاً لا يبلغ مبلغ وصف العورة والفجر كما فعل النابغة وكما فعل كثير من أدباء العرب فى العصور المختلفة احتذاء للنابغة حتى فى عبارات وصفه .

على أن رجوع نزعة التجديد إلى طريقة النظم بالعاطفة أو بذكرى العاطفة ، ومحاولة الإقلال من المغالاة بالصنعة العباسية ليس من جهل بفضل الأدب العربى فى العصر العباسى ، ولا من جهل بفطاحل شعرائه وأدبائه ، ولكن هؤلاء الشعراء شغلوا بمدح الخلفاء والأمراء ووضعوا لهذا المدح أوضاعاً . وإذا قرأت أجزاء مختارات البارودى هالك نصيب باب المديح من تلك الأجزاء الأربعة ، وهالك تردد المعانى فى ذلك الباب ؛ وهذا معنى ما أشير إليه من جمود المعانى والموضوعات وغلبة الصنعة على العاطفة النفسية . وذلك لا ينفى أن نصيب هذا العصر من التفكير وحرية القول كان عظيما . ومما يؤسف له أن حرية القول كان أكثرها فى المجون إلا عند بعض المفكرين من الشعراء . ولا ينفى أن تلك الصنعة التى ما لبثت أن تحجرت فى أوضاع المديح كانت فى أول أمرها تجديداً ، ولكنها فى المتأخرين ضاع التجديد فيها وتدلت إما إلى محاكاة عبارات ومعانى السابقين ، وإما إلى ما رأينا من النكات اللفظية والجناس وأشباهه من الأمور التى استغنى بها حتى عن روعة الأسلوب وفخامته ، إلى أن جاء البارودى وحافظ وشوقى فعادوا إلى محاكاة أفخم أساليب العصر العباسى الأول . ثم جاءت نزعة المذهب الجديد وحاولت إحداث شىء من التجديد فى أبواب القول ومعانيه وأخيلته ، وفى طريقة بحثه للموضوعات بالرجوع إلى خواطر النفس وأحاسيسها . فاذا كان بعض أدبائها قد وصف فى الأحايين خواطر لا يصح وصفها ، فانه أمر عارض لا يصح أن يكون عنواناً للمذهب ، أو أن يفسر به المذهب ؛ وهو على أى حال أهون مما فى كتب الأدب القديم من وصف فُجُر ومن مجون يقرؤه الفتيات والفتيان فى مكتبات مدارسهم كل يوم حتى صغارهم الذين يكاد المرء يعدهم من الأطفال . فينشأ هؤلاء الأطفال على النفاق والبجح إذا ما لقنهم الملقنون أن الأدب الأوربى من آداب الرذيلة ، وهم منغمسون فى هذه الرذيلة بسبب كتب الأدب العربى القديمة . أما ما يأخذه بعض كتاب المذهب القديم على المذهب الجديد من الولوع بشعر التأمل فهو أعجب العجب . وهم إنما يخلطون بين شعر التأمل وبين شعر متون وحواشي كتب الفلسفة ، أو بين شعر التأمل وشعر تعليم الأولاد . فشعر التأمل فى الحياة والنفس هو خلاصة النفس ؛ وهو لا يختلف عن الشعر الذى يقال فى وصف أحاسيس النفس فى موضوعه ما دمت تحس فيه العاطفة الشعرية . ولا يجوز الحط منه إلا إذا خلا من كل أثر للعاطفة النفسية ؛ فليس شعر التأمل فى المرتبة الثانية ، وإلا أخرجنا أبا العلاء المعرى والمتنبى من عدة الشعراء وأخرجنا أجود ما فى شكسبير . وقد فرق الأدب الأوربى بين شعر التأمل وبين شعر متون الفلسفة ، كما فرّق بين شعر التأمل وبين الشعر التعليمى فى الأسماء ؛ فلتراجع هذه الأسماء فى مصادرها .

(قارىء)

معهد التناسليات
معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس لهبه يشغل فرع القاهرة بعمارة روفيه رقم ٤٦ شارع المدابغ تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع الاضطرابات والأمراض والشذوذ التناسلية والعقم عند الرجال والنساء وتجديد الشباب والشيخوخة المبكرة . ويعالج بصفة خاصة : زيادة الحساسية طبقاً لأحدث الطرق العلمية
والعيادة من ١٠-١ وعند ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نصائح بالمراسلة للمقيمين بعيداً عن القاهرة بعد أن يجيب على مجموعة الأسئلة البسيكولوجية المدونة على ١٤١ سؤالاً التى يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش